أ. طارق بوحالة - جامعة باجي مختار- عنابة

جينالوجيا نظرية النقد الثقافي

ملخص

يعد النقد الثقافي مجالا جديدا في الدراسات النقدية المعاصرة، وذلك مع نهايات القرن العشرين، أين ظهر إلى الساحة النقدية الغربية إثر دعوات بتبني هذا النشاط النقدي في قراءة النصوص الأدبية التي أصبح ينظر إليها على أنه ليست مجرد بنى لغوية وجمالية، بل هي نصوص ثقافية بامتياز تتضمن مضمرات خطابية وأنساق ثقافية تتوارى خلف التحبيك الجمالي لهذه النصوص.

لهذا كانت هذه الصيحة المعرفية بمثابة ردة فعل عنيفة على الطرح النقدي البنيوي الذي ناد بانغلاق النص على نفسه باعتباره بنية مكتفية بذاتها لا تحتاج إلى من يحركها من الخارج، الأمر الذي فتح الباب من جديد لعودة مقولة السياقات التاريخية والسياسية والاجتماعية، والتي يمكن إجمالها في السياقات الثقافية المؤطرة للنص الأدبي والمنتجة له.

وبالعودة إلى النقد الثقافي كتوجه نقدي جديد حاولت هذه الدراسة تقديم عرض عن أبرز الأسس المعرفية التي هيأت الجو الفكري والمعرفي لنشأته. وهذا ما سيأتي في الصفحات الموالية.

Abstract

The emergence of cultural criticism by the end of the twentieth century as a unified field of enquiry -out of modern critical studies- is considered as a groundbreaking piece of research. Actually, cultural criticism was brought to the fore as a reaction to multiple calls that embraced this cultural activity in reading literary texts which were no longer deemed as linguistic and aesthetic structures, but cultural texts par excellence containing discoursal embeddings and cultural patterns cloaked in aesthetic plotting. Hence, this epistemological call was viewed as a strong reaction to the structural and critical dogma which called for looking at the text as a self-contained entity. This state of affairs called for revisiting the set of historical, political and social patterns, which can be glossed up as cultural patterns governing and creating the literary text.

By revisiting the cultural criticism as a new critical paradigm, the present study attempts to expose the epistemological rudiments that created the right intellectual and epistemological atmosphere for its emergence.

مقدمة

يرتبط ظهور النقد الثقافي بالمتغيرات المختلفة والعديدة التي عرفتها نهايات القرن العشرين، إثر بروز مفاهيم وخطابات جديدة متعلقة أساسا بتمظهرات كل من العولمة، وما بعد الحداثة، والتعددية الثقافية والدراسات ما بعد الاستعمارية وخطاب الأقليات وغيرها، غير أن هذا النشاط النقدي قد ارتبط ارتباطا وثيقا بمقولات ما بعد البنيوية خاصة "التفكيك" و"نظريات القراءة" و"جماليات التلقي" وكذا من قبلها نشاط "الدراسات الثقافية".

ومما هو متعارف عليه في مجالات المعرفة الإنسانية، أن كل توجه علمي أو فكري لا ينشأ من فراغ، دون ارتكازه على أسس ومصادر معرفية يصوغ من خلالها مقولاته وأدواته الإجرائية وكذا أهدافه المتوخاة.

لهذا ستحاول هذه الدراسة وصف أبرز الروافد النظرية التي هيأت المناخ المعرفي والمنهجي لنشاط النقد الثقافي، وقد تم التركيز على:

1- الدراسات الثقافية
2- مدرسة فرانكفورت النقدية.
3- النظرية الأدبية المعاصرة .
4- التاريخانية الجديدة- الجماليات الثقافية.
5- الدراسات ما بعد الاستعمارية .

1- النقد الثقافي بين ضبابية المفهوم وإشكالية المنهج

يعد النقد الثقافي من أحدث المجالات المعرفية التي ظهرت مع نهايات القرن العشرين، عن طريق الدعوات العديدة للنقاد إلى تبني نشاط نقدي جديد يحاول تجاوز المفهوم التقليدي للأدب وللنقد الأدبي على حدّ سواء، والذي – حسب رأيهم – طالما ركز اشتغاله وكذا بحثه على أدبية الأدب وجماليته وغفل عن مضمراته وأنساقه الثقافية المختزنة.

والنقد الثقافي عند الناقد الأمريكي "آرثر أيزابرغر"... "نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بذاته... وأن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على الفنون الراقية والثقافة الشعبية والحياة اليومية وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة. إن النقد الثقافي

مهمة متداخلة مترابطة متجاوزة متعددة، كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة و يستخدمون أفكارا ومفاهيم متنوعة، وبمفهوم النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي و النظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والأنتروبولوجية. ودراسات الاتصال وبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة (وحتى غير المعاصرة)."(1)

وقد سعى النقد الثقافي في بحثه لحجز مكان ضمن دائرة المعرفة النقدية إلى صياغة خاصة لمقولاته النظرية وأدواته الإجرائية عن طريق الانفتاح على غيره من العلوم والمعارف الإنسانية المجاورة، التي يرى فيها بعض مسوغات وجوده الفعلي، كالتحليل النفسي والنظرية الماركسية، وعلم العلامات، وعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها، وهذا ما جعل المنشغلين بمجال النقد الثقافي يختلفون في الانتماءات المعرفية، وهذا أيضا ما جعل الكثيرين من النقاد يتهمون النقد الثقافي بأنه عليل المنهج.

ويرى الناقد الأمريكي"فنست ليتش" أن النقد الثقافي يمكن له أن يتطابق مع النظرية الأدبية ما بعد البنيوية من جهة ومع حالة ما بعد الحداثة من جهة ثانية.

مما يجعل هذا النشاط مجالا نقديا منفتحا يسعى إلى توظيف..." المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والمؤسساتية، من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي النقدي."(2)

إن مجرد اعتبار النقد الثقافي مرادفا لما بعد البنيوية وما بعد الحداثة من قبل ليتش لدليل هام بأنه نشاط نقدي جديد يدعو إلى ردم الحدود التي رسمتها الدراسات النصانية حول الأدب وجعلته مجالا مؤمما وذلك بعزله تماما عن السياقات التاريخية والثقافية والسياسية التي أنتجته وعن سياق القارئ ونادت بسلطة النص.

أما عبد الله الغذامي فيعتبره "فرعا من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء."(3)

ما يميز النقد الثقافي عند الغذامي هو جعله من فروع علوم اللغة ، كونه حاول عبر عمله النقدي: "النقد الثقافي" قراءة في الأنساق الثقافية العربية (2000) إلى إحلال هذا النشاط مكان علوم اللغة العربية من بلاغة ونقد أدبي، وإعلانه موتهما وإفلاسهما الإجرائي. لاسيما فيما تعلق بقراءة المستهلك والمنتج الثقافيين اللذين ينتميان إلى ما هو غير رسمي.

لهذا وجب التركيز على أن النقد الثقافي لا يدرس الثقافة بل يدرس المنتجات الثقافية كخطابات تتضمن أنساق ومضمرات وتمثيلات، والأدب جزء من هذه الخطابات. ومن ناحية أخرى من الخطأ الجزم بأن النقد الثقافي يدرس الأنساق المضمرة وفقط، بل يهتم أيضا بما هو ظاهر.

أما محسن جاسم الموسوي فيرى بأن "النقد الثقافي عبارة عن فاعلية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية المحض من المساس به أو الخوض فيه، إذ كيف يتسنى للناقد الأدبي أن يخوض في المبتذل والعادي والوضيع واليومي والسوقي بعدما تمهر كثيرا في قراءة النصوص المنتقاة والمنتخبة التي يتناقلها نقاد الأدب على مر العصور..."(4)

يطرح مفهوم النقد الثقافي من منظور الموسوي إشكالية هامة تتعلق بنوعية الموضوعات التي يهتم به، حيث أنها موضوعات لازالت غريبة عن النقد الأدبي.

من خلال ما تم عرضه يمكن اعتبار النقد الثقافي مظلة كبيرة تتضمن جملة من التيارات النقدية الأخرى، ما يطرح إشكالات مختلفة وعديدة أبرزها: ضبابية المفهوم وغياب الأداة النقدية والإجرائية الموحدة، الأمر الذي فتح الباب أمام اجتهاد النقاد في كل مرة إلى صياغة جملة من الأدوات الإجرائية بغية مقاربة النصوص مقاربات ثقافية مختلفة. ما يطرح إشكالية أعمق وهي غياب منهج واضح المعالم.

إشكالية المنهج

يعتبر الحديث عن المنهج النقدي من المسائل البارزة التي شغلت النقاد والدارسين في مجال الدراسات النقدية والأدبية منذ القديم، حيث كثيرا ما أثير النقاش في الدراسات النقدية العربية حول إشكالية الرؤية والمنهج، ومدى فهمها وتمثّلها من قبل النقاد والدارسين، وقد أسفر هذا الجدال بينهم عن قضية المنهج التي أصبحت من القضايا الصعبة والشائكة في ميدان النقد العربي عبر أزمنته المختلفة،

فلطالما سال حبر كثير حول هذا الموضوع، خاصة ما تعلق بدرجة وعي الناقد العربي بخاصية المنهج المتبع والمستعمل.

ومن الجدير الحديث في هذا السياق عن علاقة النقد الثقافي كنشاط معرفي ونقدي جديد بالمنهج الذي يطبقه، ومدى صرامته وكفايته الإجرائية. لهذا لابد من الإجابة عن الإشكالية التالية:

هل يرتكز النقد الثقافي على منهج واضح ومستقل أم أنّه يستعمل أدوات إجرائية مختلفة المصادر ؟

بغية الإجابة عن هذا السؤال وجب العودة إلى جملة من الآراء الموزعة بين مؤيد لوجود منهج في النقد الثقافي وبين معارض لذلك.

حيث يبرز "فنست ليتش" بقوله إن: « النقد الثقافي يوظّف المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والمؤسساتية، من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل النقدي..."(5)

يدعو النقد الثقافي حسب ليتش إلى الانفتاح على المجالات المعرفية المجاورة، والأخذ منها لاسيما: علم النفس وعلم الاجتماع، وعلم العلامات، والتاريخ، والسياسة، والدراسات ما بعد الكولونيالية، دون أن يتخلى عن مناهج النقد الأدبي.

إن هذا التصريح فيه دليل واضح على أن النقد الثقافي ليس بديلا يزيح النقد الأدبي نهائيا بل يسعى جاهدا إلى الاعتماد على بعض أدوات النقد الأدبي، وفي هذا الصدد يقول عبد الله الغذامي: «إنني أحس أننا بحاجة إلى النقد الثقافي ولكن انطلاقا من النقد الأدبي لأن فعالية النقد الأدبي جربت وصار لها حضورا في مشهدنا الثقافي والأدبي وقد توصلنا إلى أن الكثير من أدوات النقد الأدبي صالحة للعمل على فاعلية النقد الثقافي انطلاقا من النقد الأدبي..."(6)

ومن أبرز المسائل التي يجب أن تتوفر لدى الناقد الثقافي هو مدى وعيه بالمنظومة الثقافية التي أنتجت النص الأدبي المدروس كونه منتجا ثقافيا قبل كل شيء، والمتمثلة في السياقات المختلفة التي أنتج في ظلها هذا النص، لهذا فالقراءة الثقافية على أن "تصبح قراءة تواصلية تتطلب وعيا بالمنجز الثقافي لأنها تعاين النص من منظور ثقافي متحرك... وليس من منظور جمالي يفترض أنه ثابت ويخضع لضوابط وممارسات محددة.(7)

غير أنه لا يمكن التسليم بهذا الحكم تسليما نهائيا، إذ إن ذلك يلغي هذا النوع من النقد، لأن عصب أي نقد هو المنهج الذي يطبقه من خلال أدواته الإجرائية.

فالنقد الثقافي فاعلية إجرائية لا تنحصر تحت مظلة منهج واحد كما هو الحال عند المناهج النصانية - مثلا- وعلى رأسها البنيوية. ما يجعل القراءة الجمالية للنص الأدبي مرحلة أولى لدى النقاد الثقافيين، بل لا يمكن الاستغناء عنها، تليها مرحلة ثانية وهي قراءة ثقافية للنص بوضعه في سياقه وبيئته الثقافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية، وحتى النفسية...

وهناك من النقاد من يصف النقد الثقافي أنه يعاني من غياب المنهج؛ حيث يرى شربل داغر "أن هذا النقد "الجديد" في ترويج البعض له، يبقى عليل المنهج، حتى لا نقول إنه من دون منهج، إذا ما قيس بصرامة المنهج البنيوي وببرهانيته. والسؤال المقلق يكون في هذه الحالة، ألا نكون في ذلك نعود من حيث ندري أو لا ندري، إلى النقد التقليدي في نهاية المطاف، وإلى تحكم الناقد الاستنسابي بالنص، إلى تذوقه الجمالي ليس إلا، أشبه بالمتنزه الخفيف في حديقة النص، من دون حسيب أو رقيب في إقامة البرهان على ما يقوله. "(8).

يبدو من خلال هذا القول أن النقد الثقافي لا يملك منهجا واضح المعالم مثل غيره من المناهج خاصة: المنهج البنيوي،كما يمكن اعتبار أي قراءة ثقافية - حسب هذا القول- قراءة ناقصة تفتقر إلى كل شروط الصرامة العلمية وكذا خطوات المنهجيّة الموضوعية.

وما يزيد هذا الموقف قوة ما جاء على لسان الناقد السوري عبد النبي اصطيف في رده على الغذامي بمقاله الموسوم بـ:" بل نقد أدبي"الذي جاء فيه" وحقيقة الأمر أن دعاة النقد الثقافي في المجتمعات العربية الحديثة والمعاصرة إنما هم قوم فتنوا بما حققه "النقد الثقافي" في الغرب، بوصفه جزءا مما بات يشار إليه في الأوساط الجامعية الغربية والأمريكية بـ"الدراسات الثقافية"... فرأوا فيه الحل السحري لجميع مشكلات النقد الأدبي العربي الحديث، غافلين أن هذا النقد الثقافي –على أهمية ما حققه من إنجازات- لم يبلغ دور النقد الأدبي في المجتمعات الغربية وغير الغربية التي ازدهر فيها، بل إن النقد الأدبي قد شهد في هذه المجتمعات ازدهارا مماثلا ولا يزال يقوم بالكثير من الوظائف..."(9).

يعد ما جاء به هذا القول ردا قويا على طرح النقد الثقافي الذي بشر به الغذامي، حيث يعتقد عبد النبي اصطيف أن النقد الأدبي وصل إلى مرتبة متقدمة من الوعي عكس النقد الثقافي الذي مازال بعيدا عن هذه المرتبة.

أمام هذه السجال حول مشروعية النقد الثقافي التي يكتسبها من وجود منهج نقدي صارم وموحد، يبقى المشهد الثقافي والنقدي العربي يطالعنا بما هو جديد في هذا المجال، عبر دراسات تحاول إثبات صلاحية القراءة الأدبية من منظور النقد الثقافي.

2- الروافد المعرفية للنقد الثقافي

أ- الدراسات الثقافية؟

ظهرت الدراسات الثقافية باعتبارها مجالا معرفيا ونقديا مع بدايات الستينيات من القرن العشرين إثر تأسيس مركز "برمنغهام" للدراسات الثقافية المعاصرة في بريطانيا، عام 1964 على يد مجموعة من الدارسين وعلماء الاجتماع البريطانيين يأتي على رأسهم كل من "ريموند وليامز" و"سيوارت هول" و"ريتشارد هوغارت" وغيرهم، حيث سعى هؤلاء إلى نشر أوراق نقدية في موضوعات مختلفة تتعلق بالثقافة الشعبية ومدى أهميتها في الحياة العامة للإنسان الغربي .

ويعتقد أصحاب الدراسات الثقافية أنه قد حان الأوان لنقاد ودارسي الأدب الانتقال من دراسة النصوص الأدبية والخطابات المتنوعة إلى دراسة النصوص الهامشية والخطابات الشعبية والجماهيرية حيث يرون أن... أساتذة الأدب قد انصرفوا من ملتون إلى مادونا ومن شكسبير إلى المسلسلات التلفزيونية التي تعالج الحياة اليومية والمنزلية...(10).

كما يسعى نشاط الدراسات الثقافية إلى تقويض مركزية المعتمد الأدبي (canon) أو ما يوصف أحيانا بالأدب الرسمي، الذي انشغل دائما في البحث عن جمالية النصوص الأدبية المعترف بها، مما جعل الدرس الثقافي يركز على النصوص والخطابات التي تنتجها العامة والأقليات وتبحث داخلها عن الأنساق والتمثيلات الثقافية وليس شرطا أن تكون النصوص المدروسة تنتمي إلى الأدب الرسمي.

لهذا فعبر "مسار تطورها كانت الدراسات الثقافية تتحدى أشكال التراث المعتمد والحدود الفاصلة بين الحقول المعرفية، فقد ركزت اهتمامها على جوانب الثقافة التي استبعدتها مجالات العلوم الإنسانية المستتبة منذ زمن طويل..."(11).

لم تعد الدراسات الثقافية تعترف بالحدود الفاصلة بين المعارف الإنسانية والنقد الأدبي، فهي تسعى إلى كسرها باعتمادها أثناء قراءة النصوص والخطابات الأدبية والثقافية على باقة (كوكتيل) من المقولات والأدوات الإجرائية الموزعة بين معارف وعلوم إنسانية قريبة ومتقاطعة مع الأدب مثل: علوم النفس والاجتماع والأنتربولوجيا الثقافية والسيميائيات والدراسات ما بعد الاستعمارية والتفكيكية، و الدراسات النسوية والبنيوية الماركسية... ومما يلاحظ أن أصحاب الدراسات الثقافية قد جمعوا بين النقد والثقافة والانتماء الإيديولوجي كون أغلبهم "ماركسيين" أو "ماركسيين جدد".

لهذا فقد عدت الدراسات الثقافية اللبنة الأولى لنشأة النقد الثقافي لدرجة أن هناك خلطا في النقد العربي المعاصر بينها وبين النقد الثقافي الذي يعتبر نشاطا آخر وليس هو الدراسات الثقافية.

ب- منجزات مدرسة فرانكفورت النقدية

لا تعني كلمة "النقدية" التي ألحقت بمدرسة فرانكفورت معنى النقدية الأدبية بل تتعلق أكثر شيء بالنقدية الفكرية والفلسفية، لذا "يمكن الحديث حول بداية المشروع العلمي لمدرسة فرانكفورت مع نشأة معهد البحوث الاجتماعية الذي مارس نشاطه بهذه المدينة في بداية فبراير 1923 وافتتح رسميا في يونيو 1924، وتكون كحلقة رسمية أو حركة طلائعية ،عبر النقاشات الجماعية المؤسسية، ممن شكلوا إحدى فصائل الموجة الراديكالية وشاركوا في رفض المشروع الثقافي الغربي، ورغبوا في القيام بنقد جذري لعصرهم..."(12)

لقد أثر التوجه الماركسي لمدرسة فرانكفورت في أراء ومواقف أعضائها، حيث اهتموا بتخصيص مناقشات جذرية لقضايا مهمة تتعلق بالثقافة الجماهيرية التي تنتجها وتروج لها وسائل الإعلام والاتصال ذات الانتشار الواسع.

غير أن المقولات التي كانت لها الأثر في خدمة النقد الثقافي هي ما جاء في أعمال الناقدين: "تيودور أدورنو" و"يورغان هابرماس"، ففي مقالة "أدورنو" التي تحمل

عنوان: "النقد الثقافي والمجتمع" إشارات مبكرة للنقد الثقافي، وقد كتبها عام 1949 وفيها... "هجوم على ذلك النشاط الذي يربطه الكاتب بالثقافة الأوربية عند نهاية القرن التاسع عشر بوصفه نقدا برجوازيا يمثل مسلمات الثقافة السائدة ويبعدها عن الروح الحقيقية لنقد ،وما فيها من نزوع سلطوي للسائد والقبول عند الأكثرية..." .(13)

أما مقالة هابرماس فتحمل عنوان المحافظون الجدد: "النقد الثقافي والحوار التاريخي" الذي عرض فيه مفهوم النقد الثقافي الشائع آنذاك لكنه ليس كمفهوم النقد الثقافي حاليا ،حيث لم يعنى بتحديد المفهوم بل اكتفى بالإشارة إلى دلالة شائعة كتلك التي تضمنتها مقالة أدورنو...(14).

يعتبر ما أنجزه أدورنو وهابرماس من بين المرتكزات المعرفية التي هيأت لنشأة النقد الثقافي ولم يقتصر ذلك على إطلاق الاسم فقط،بل هناك أراء ومواقف ومقولات غذت النقد الثقافي المعاصر مثل أراء هوركهايمر وأدورنو في كتابيهما "جدل التنوير" خاصة مفهوم صناعة الثقافة الذي يحيل على مفهوم الثقافة الجماهيرية.

كما لا يمكن تجاهل موقف "ولتر بنيامين" وهو من أتباع مدرسة فرانكفورت الذي ينظر إلى الثقافة الحديثة "... نظرة مناقضة لنظرة أدورنو، فيذهب إلى أن الاختراعات التقنية الحديثة (السينما والإذاعة والأسطوانات) قد أسهمت بعمق في تغير مكانة العمل الفني.ففيما مضى كان للعمل هالة تنبع من تفرده حين كانت الأعمال الفنية وقفا على الصفوة المتميزة من البرجوازية، وكان ذلك يصدق بوجه خاص على الفنون البصرية، إن ظلت هذه الهالة ملازمة للأدب بدوره ولكن وسائل الاتصال الحديثة قضت قضاء تاما على هذا الشعور شبه المقدس بالفنون وتركت أعمق الأثر على موقف الفنان من الإنتاج..."(15)

لقد كان لمنجزات مدرسة فرانكفورت الأثر البالغ في صياغة بعض مقولات النقد الثقافي خاصة وأن جل أعضائها اشتغلوا على الظاهرة الثقافية ونظروا إليها على أساس أنها تحمل تمثيلات الطبقات لاسيما فئة الجماهير التي راهنوا عليها من خلال كتاباتهم.

ج- النظرية الأدبية المعاصرة

تعد نهاية الستينات من القرن العشرين فترة خصبة أسهمت في تطور النظرية الأدبية المعاصرة، وخاصة بعد أحداث ماي 1968 الاحتجاجية التي غيرت مفاهيم جديدة، على إثر ما قامت بها جماعات الطلبة في ضواحي باريس وخاصة داخل جامعة السوربون، والتي جاءت معادية للامبريالية وللنظام الاجتماعي ككل، الأمر الذي دفع النقاد في فرنسا وأوربا إلى تبني مقولات نقدية ومعرفية جديدة أبرزها: أنه حان الأوان للنظرية الأدبية أن تخرج من شرنقة التقليد وأن تترك تمركزها الغربي الذي صاحبها منذ الفلسفة اليونانية.

لهذا فقد صارت النظرية آنذاك... "علم العلوم كما كانت الفلسفة في غابر الأزمان وأصبح الناقد الأدبي العتيق، الذي غاب تحت ركام الخطابات المتباينة مطالبا بتوجيه اهتماماته، لا إلى النصوص الأجنبية فقط، بل إلى جميع مظاهر الوجود إلى الحد الذي دعا فيه "جونتان كولر" إلى أن النظرية الأدبية ليست معينة بالدراسات الأدبية فقط بل بمجموعة من الكتابات التي تتناول مع ما تقع عليه الشمس، إنها تتضمن أعمال الأنتربولوجيا وتاريخ الفن والنظرية الدراسات السينمائية ودراسات الجنوسة واللسانيات والفلسفة والنظرية السياسية والتحليل النفسي والدراسات التي تدور حول العلم ومفهومه، والدراسات التي تتناول التاريخين الثقافي والاجتماعي، وعلم الاجتماع."(16)

لم تصبح النظرية الأدبية مقتصرة على المدونات الأدبية كمجال بحث، بل تجاوزت الأمر إلى الاهتمام بمجالات أخرى جديدة كخطابات الموضة والموسيقى والنكتة والأغنية وثقافة وسائل الإعلام وكتابات الجنوسة والنظرية السياسية ودراسات ما بعد الاستعمار وخطاب الصورة والإشهار والتعددية الثقافية وغيرها.

وهذا الذي جعل النقد الثقافي يجد في مقولات النظرية الأدبية المعاصرة بعد مسوغات وجوده، لاسيما وأنهما أصبحا يتقاطعان في كثير من الموضوعات المدروسة، ومن ناحية أخرى فقد تزامن ظهور النقد الثقافي مع التمرد الذي حصل في العديد من النظريات الأدبية والثقافية التقليدية بما في ذلك التقليد التي تحول فيها النقد إلى مؤسسة لها من يشرف عليها ويحفظ حدودها لاسيما التي رسمتها لها الدراسات الشكلانية ومن بعدها البنيوية.

إذا يتقاسم النقد الثقافي والنظرية الأدبية المعاصرة الانشغال المعرفي والنقدي نفسه، وهو السعي إلى توسيع دائرة الدراسات وموضوعاتها، وكذا السعي إلى تشكيل آليات ومقاربات جديدة لدراستها.

د- التاريخانية الجديدة- الجماليات الثقافية

تعد التاريخانية الجديدة من الاتجاهات النقدية التي عرفت تطورها في مرحلة ما بعد البنيوية، حيث بدأت إلى الظهور مع ثمانينات القرن العشرين محاولة أن تخرج النص الأدبي من سجن التمركز حول اللغة والدراسة الداخلية، حيث يعبر هذا الاتجاه النقدي عن "مجموعات أو تجمعات من النقاد وأصحاب النظريات الذين رفضوا المناهج التزامنية أو الآنية المستعملة في دراسة الثقافة والأدب... ومن ثم حاولوا التوصل إلى إجابات مقنعة للعديد من الأسئلة الناشئة عن التضارب بين المناهج الأدبية والمناهج الثقافية والمناهج التاريخية المستعملة في دراسة شتى ألوان النصوص ومعظم الذين يطلق عليهم تعبير التاريخين الجدد يفضلون في تعبير المختصين في الثقافة والأدب..."(17)

ومن أبرز المصطلحات التي ترافق مصطلح التاريخانية الجديدة والذي كان لها أثر بعد ذلك في بلورة النقد الثقافي هي مفاهيم: الهيمنة، والبنية التحتية والبنية الفوقية، والاستهلاك الجماهيري لوسائل الإعلام، والصراع الطبقي وغيرها.

ولعل أبرز مقولات التاريخانية الجديدة التي كان لها الأثر في خدمة نشاط النقد الثقافي هي:

- النص الأدبي يمتص السياقات الثقافية والتاريخية والسياسية، ثم يعيد تمثيلها جماليا على شكل صور وأنساق ثقافية.
- أرخنة النصوص وتنصيص التاريخ: ومعناه أن يسعى الناقد إلى معاملة النص الأدبي معاملة التاريخ، ومن جهة أخرى معاملة التاريخ معاملة النص الأدبي.
- الاستغناء عن بعض مقولات النقد الأدبي وعلى رأسها الترميز (اللجوء إلى استعمال الرمز) والمحاكاة والتخيل، حيث يعتبرها دعاة التاريخانية الجديدة قد صارت تتصف بالعجز عن تحليل الظاهرة الأدبية والثقافية بمفهومها الواسع الذي ينضوي له النقد الأدبي ..وهذا ما جعل فكرة الأرخنة والتنصيص تأخذ مكانها في التاريخانية الجديدة...(18)

وقد قدم الناقد الأمريكي "ستيفن غرينبلات" مصطلحا آخر للتاريخانية الجديدة وهو "الجماليات الثقافية" عام 1980 ثم تراجع عنه فيما بعد.

هـ- الدراسات ما بعد الاستعمارية

تعد الدراسات "ما بعد الاستعمارية" اتجاها نقديا ومعرفيا من إفرازات مرحلة ما بعد البنيوية حيث واكب ظهوره استقلال البلدان المستعمرة في كل من إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.

وقد عرف هذا المجال المعرفي تطورا ملحوظا مع ستينيات وسبعينيات القرن العشرين وهو عبارة" فكر حديث نشأ مع بدايات ما يسمى عصر الاستقلال وقد ارتبط بالحركات اليسارية التي تمارسه التي تبحث في مظاهر التعسف والظلم والاضطهاد التي تمارسه دولة على أخرى،أو فئة على أخرى، وعلى هذا فهذا الفكر يتخذ من التاريخ وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والأدب، موضوعات لاهتماماته ومادة لأبحاثه، وبالطبع تبرز في هذا السياق النظريات الشكلية والتفكيكية..." (19)

تسعى الكتابات ما بعد الاستعمارية التي يمثلها جملة من النقاد اليساريين المنتمين في أغلبهم إلى العالم الثالث أمثال: إدوارد سعيد وهومي بابا وجياتاري سبيفاك وغيرهم إلى تقويض الخطاب الاستعماري والامبريالي بكل أشكاله، كما أن هذه النظرية ذات ارتباط وثيق بالنظرية الثقافية أو بالدراسات الثقافية ومن خلالها هي أبرز الأسس المعرفية التي طعمت مجال النقد الثقافي كغيرها من الأسس التي سلف ذكرها.

تبحث الدراسات ما بعد الاستعمارية عن ثقافات الدول المستقلة حديثا وكذا خطاب الأقليات والهويات، أين يستعيد ما كان هامشيا مكانه داخل من هو مركز.

الخاتمة

في الختام لابد من الوقوف عند قضية مهمة تتعلق بمرجعيات النقد الثقافي المذكورة أعلاه، حيث أن هذه المرجعيات بقدر ما هي أصول ومصادر للنقد الثقافي، فهي في الوقت نفسه مداخل ومقاربات يلجأ إليها النقاد أثناء ممارساتهم التطبيقية.

فبحسب مباحث النقد الثقافي تتشكل المقاربات، أي إذا كان المبحث هو السرد فإن الناقد يلجأ في كثير من الأحيان إلى مقولات النظرية ما بعد الاستعمارية،

وبخاصة ما جاء عند ادوارد سعيد في كتاباته العديدة وعلى رأسها كتابه "الثقافة والامبريالية".

أما إذا كان المبحث أو مدونة البحث هي الشعر فكثيرا من الأحيان ما يلجأ النقاد إلى مقولات التحليل الثقافي، أو منجزات التاريخانية الجديدة، خاصة ما جاء عند النقاد الأنجلفون، المتخصصين في خطابات عصر النهضة أمثال: ستيفن غرينبلات وريموند ويليامز وغيرهم.

وفي حالة كان البحث متعلقا بخطاب غير أدبي فلجوء النقاد الثقافيين يكون إلى مجال الدراسات الثقافية، لاسيما ما جاء عند رواد مركز برمنغهام للدراسات الثقافية، من أمثال ستوارت هول وهوغارت...

كما أن لمقولات "ميشال فوكو" و"رولان بارث" و"جون بودريار" و"فرانز فانون" و"بيار بورديو" و"غرامشي" و"ألتوسير" وغيرهم حضورا قويا في تأسيس مقولات النقد الثقافي.

الهوامش

1- أرثر أيزابرجر: النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، ترجمة ،وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، ط- 2002،ص191.4

2- نقلا عن يوسف عليمات: النسق الثقافي دراسة في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، جدارا ،الأردن، ط1، 2009، ص165.

3- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2005، ص 83، 84.

4- محسن جاسم الموسوي : النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط، 1، 2005 ، ص12.

5- يوسف عليمات: النسق الثقافي، ص 165.

6- نقلا عن مصطفى الضبع: أسئلة النقد الثقافي، عبر الموقع الإلكتروني الفيوم: www.fayoum.edu.eg، تاريخ الزيارة 2010/10/9.

7- عبد الفتاح احمد يوسف: استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي ، مجلة عالم الفكر، ص104.

8- شربل داغر: عن البنيوية: نقدا لها في الاحتياج إليها، ضمن كتاب جماعي، آفاق النظرية الأدبية المعاصرة، تحرير وتقديم، فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007، ص 38.

9- عبد الله الغذامي وعبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أن نقد أدبي، دار الفكر، سوريا، ط1، 2004، ص68.

10- جوناثان كولر: مدخل إلى النظرية الأدبية، ترجمة ، مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص69.

11- ك.نيلووف وأخرون: القرن العشرون، المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، ترجمة ،إسماعيل عبد الغاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط1، 2005، ص252.

12- توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت ،ترجمة، سعد هجرس، أويا للنشر، طرابلس، ليبيا، ط، 2، 2004، ص16.

13- سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط4 ،2005، ص306.

14- المرجع نفسه، ص307.

15- رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة ، جابر عصفور، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، دط ، 1998، ص64.

16- فخري صالح وأخرون: أفاق النظرية الأدبية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2007، ص13.

17 - محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996، ص60.

18- حفناوي بعلي. مدخل إلى النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، بيروت، ط1، 2007، ص63.

19- مصلح النجار وآخرون: الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص117.